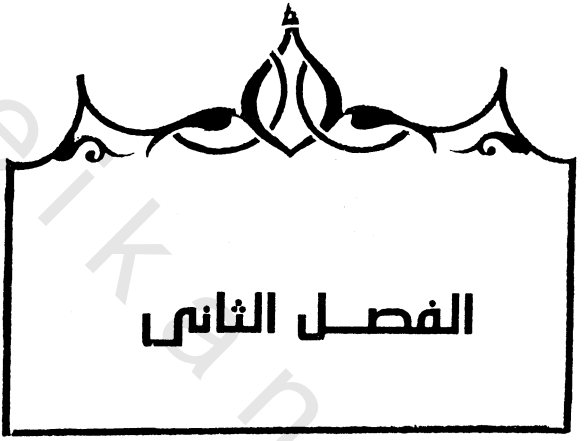

الفصل الثانى

كيف قضى المسلمون على المستوطنات اليهودية ؟

obeikandl.com

obeikandl.com

كيـف قضـى المسلمـون عـلى المستـوطنات اليهودية ؟

كان اليهود فى يثرب قد سمعوا الشىء الكثير عن الرسول صلى الله عليه وسلم منذ أن أظهر دعوته فى مكة ، فساورهم القلق ، ولكنهم حرصوا على التظاهر باللامبالاة ، باعتبار أن الأمر لا يعنيهم ، وإنما يعنى العرب الذين أخذ محمد عليه الصلاة والسلام يُسَفِّه أحلامهم ويُعَرِّض بآلهتهم . واعتقد اليهود أن قريشا وبقية العرب سوف يتكفلون به ويقضون على دعوته فى المهد ، وبالتالى فلا يجب عليهم أن يتدخلوا لكيلا يؤدى ذلك إلى تعصب العرب للرسول نكايةً فى اليهود الذين كانوا يُكِنُّون لهم كراهية شديدة .

ولكن موقف اليهود ما لبث أن تغير لمَّا علموا بأن المسلمين يزمعون الهجرة إلى المدينة بعد الاتفاق الذى تم بينهم وبين وفد الأوس والخزرج ، ثم مجيء المسلمين بالفعل ، وفى أعقابهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعندئذ أدرك اليهود أن الخطر لم يعد بعيدا عنهم وإنما أصبح فى عُقْر دارهم ، وعلى الفور بدءوا ينشطون من أجل منعه ، وذلك بالتآمر مع كل من له مصلحة فى القضاء على الإسلام .

ولقد أخطأ المستشرقون والمؤرخون الغربيون ، حين تصوروا أن

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من اليهود ، عقب وصوله إلى المدينة ، وهو الموقف الذى اعتبروه مهادنا ـــ قد تغير بعد ذلك لمَّا اطمأن الرسول إلى قوته ووثق من صلابة وضعه . وهو تصور خاطىء بلا أدنى شك أوقعهم فيه التعصب .

ومما تجدر ملاحظته ، بالنسبة للغربيين الذين يتصدون لدراسة الإسلام ، أن ملكة النقد تنشط عندهم بشكل مَرَضِىٍّ ، فيمضون يوجهون النقد إلى الإسلام ، وكأنما أوتوا علم المتقدمين والمتأخرين ، وفى ثقة تصل إلى درجة الغرور ، دون أن يقولوا لنا شيئا عما كان يجب على المسلمين أن يفعلوه . وهذا الداء الوبيل يظهر بوضوح أكبر إذا تعلق الأمر بموضوع له صلة باليهود حتى ليبدون لمن يقرأ لهم وكأنهم قد نصبوا من أنفسهم مدافعين عنهم . أما الحقيقة فهى خلاف ذلك تماما . فإذا كان اليهود قد عُذِّبوا ونُكِّلَ بهم بصورة بَشِعة ووحشية ، وبسبب وبدون سبب ـــ فإن ذلك لم يقع لهم من أى شعوب كما وقع لهم من الشعوب الأوربية ، وفى مختلف حقب التاريخ ، ليس ذلك وحسب ، بل إن الغرب الذى يذوب رقة ويفيض إنسانية لم يبذل كل هذه الرعاية والحماية لليهود فى هذا القرن إلا من أجل أن يتخلص منهم ومن شرورهم وجشعهم واستغلالهم ، فلم يجد غير العرب ، وهم فى هذه الحالة المزرية من الضعف والتناحر ليرميهم بهم ، فلا إنسانية هناك ولا رقة ، وإنما هى المصلحة ولا شىء غيرها ، يبيع الغرب من أجلها القِيَمَ والمُثُلَ وكلَّ الفضائل ، بل الأهلَ والولدَ إذا اقتضى الأمر .

ولا ندرى ماذا كانوا يريدون من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل لكى يحظى برضائهم عن تصرفاته ؟ هل كانوا يريدون منه أن يبادر إلى التخلى عن الرسالة التى بعث من أجلها ويعتنق اليهودية ؟ حتى هذا لم يكن سيجعلهم يرضون عنه ؛ لأنهم فى الواقع لايحبون اليهود ولا اليهودية ، وبالتالى فإنهم كانوا يريدون منه أن يعتنق النصرانية . ولقد صدق الله العظيم إذ يقول ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (١).

لم يكن أمام الرسول صلى الله عليه وسلم يوم هجرته إلى المدينة إلا أحد أمرين بالنسبة لعلاقته باليهود : الأول : أن يجليهم عن المدينة دون سبب هام وواضح ، أما الثانى فأن يتركهم كما هم ، ويعمل على طمأنتهم والتحاور معهم ، لعلهم يهتدون ، أو على الأقل يكفون عن الكيد له . وبطبيعة الحال فإن أخذه بالأمر الأول كان ـــ فضلا عما فيه من ظلم لا يرضى به الرسول صلى الله عليه وسلم ـــ سيؤدى إلى مشاكل لا حصر لها : منها أن الأوس والخزرج كانوا حلفاء لليهود ، ولم يكن عدد الذين أسلموا من القبيلتين كبيرا بحيث يمكنهم أن يقفوا فى وجه من لم يسلموا إذا تصدوا للرسول ليمنعوه من إجلاء اليهود . هذا بالإضافة إلى ماكان لدى اليهود أنفسهم من قوة عسكرية ذات شأن فى حين لم يكن لدى المسلمين أية فكرة عن الحرب ، وبخاصة فى تلك الظروف البالغة السوء ، حيث هاجروا من بلدهم مكة وليس

---

(١) سورة البقرة – الآية ١٢٠

معهم سلاح ولا عتاد ، بل ولا يملكون قوت يومهم بعد أن اغتصبت قريش كل ماكان لهم .

فالرسول ، إذن ، لم يهادن اليهود ترقبا لفرصة تسنح فينقض عليهم ، وإنما أراد أن يمنحهم الفرصة ليتفهموا الإسلام وليتعاملوا مع المسلمين بشكل مباشرلعلهم يقتنعون ثم يهتدون .

وكان من المنطقى ، بل ومن العدل أن يعامل الرسول صلى الله عليه وسلم اليهود معاملة طيبة ، طالما أنهم لم يظهروا له العداء والكراهية وإن أبطنوها . ولا شك أنه كان يعلم ذلك ، ولم لا ؟ أليس بنبى رسول يأتيه خبر السماء ؟ . ولكن الذى لا شك فيه أيضا أن الآخرين — وبخاصة الأنصار من أوس وخزرج — لم يكونوا يعلمون ، فقد كان بعضهم واقعا تحت تأثير بنى قريظة ، والبعض الآخر واقعا تحت تأثير بنى النضير أو بنى قينقاع يرتبطون معهم بالعهود والوعود ، وكل فريق يحسن الظن بالآخر ، واليهود من جانبهم يبالغون فى إظهار المودة والحب والرقة مع هؤلاء وهؤلاء كسبا لتأييدهم ، وتحسبا لما سوف يحدث فى المستقبل ، عندما يستفزون المسلمين فيرد عليهم هؤلاء فيجدون من حلفائهم من أوس وخزرج المؤازرة والتأييد . فماذا لو أن الرسول بادر اليهود بالعداء والطرد دون سبب ؟

ولن نتكلم هنا عن خضوع الرسول صلى الله عليه وسلم للوحى والتزامه بما يجرى إبلاغه به بصدد اليهود ، طالما أن المستشرقين والمؤرخين الغربيين يرفضون الاعتراف بأن القرآن الكريم هو كلام

الله الذى حمله جبريل عليه السلام إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقولون إنه كلامه . إذ لو كانوا يؤمنون ما قالوا ذلك الذى قالوه ، وما وجدنا بأنفسنا حاجة للرد عليهم ، ولكنه التعصب !!

وسنتابع فيما يلى علاقة الرسول صلى الله عليه وسلم باليهود منذ أن وصل إلى يثرب (المدينة) وما طرأ على هذه العلاقة من تغير انعكس على مواقفه منهم .

عقد الموادعة ــ وغزوة بنى قينقاع

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم علاقته باليهود فى يثرب التى أصبح اسمها (المدينة) بأن عقد حلفا بين المسلمين من مهاجرين وأنصار ، وبين اليهود شرط فيه لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين فى المصلحة العامه ، وكفل لهم التمتع بما للمسلمين من حقوق ، وأمَّنهم على أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، مما كان يجب عليهم معه أن يكفوا أذاهم عنه ويتركوه لما بعث من أجله ، ولكن ماجبلوا عليه من الشر والمكر والفساد أبى عليهم إلا أن يكيدوا له وللمسلمين . فأخذوا يشككون الناس فى صدق نبوته ويروجون الشائعات المغرضة ، ويتهمونه بالكذب والنقل عن كتبهم فى محاولة واضحة لصرف الناس عنه وتأليبهم عليه . ولم يكتفوا بالكلام المسموم يهمسون به فى آذان الناس ، بل تمادوا فى الجرأة والوقاحة ، وجاهروا بأحقادهم فى شعر راح بعضهم ينظمه ويردده فى مجالسهم ومجالس المشركين . والشعر يومذاك سلاح من أخطر الأسلحة ؛ لما كان له من تأثير قوى فى النفوس ، وكان الناس يحفظون الجيد منه ويرددونه ، فهو بمثابة

الإذاعة المسموعة والمرئية والصحف فى أيامنا هذه . وكان من شيوخ اليهود رجل يدعى أبا عفك ساءه انتصار المسلمين فى بدر ، فأخذ ينظم شعرا يهجو فيه النبى ويحرض قومه عليه ، فكأنه أعلن بذلك خروجه على عقد الموادعة ونبذه للواجبات التى فرضها على أطرافه يهودا ومسلمين ، ودلل على خطره الشديد على المسلمين وبالتالى ضرورة التخلص منه ؛ لذلك صدر الحكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله ، وكلف أحد المسلمين وهو سالم بن عمير التنفيذ .

وهكذا أظهر الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود أن أى تصرف فيه إساءة للإسلام وللمسلمين لن يمر بدون عقاب مهما كان مرتكبه . كما أثبت للعرب من غير المسلمين أنه ليس بظالم ولا مفتئت على أحد ، بل معتدى عليه يرد الاعتداء .

ولقد كان قتل أبى عفك كفيلا بأن يجعل اليهود ـــ لو كانوا عقلاء ـــ يكفُّون عن سلوكهم الدنىء ويلتزمون بالعقد الذى كفل لهم الأمن والطمأنينة ، ولكنهم أصروا على المُضِىِّ فيما عقدوا العزم عليه من الكيد للإسلام وإحداث الوقيعة بين العرب مسلمين وغير مسلمين . وبدأت أقدم القبائل اليهودية المحاولة ، وهى قبيلة بنى قينقاع ذات الباع الطويل فى شق صفوف العرب فى الجاهلية والوقيعة بينهم . وكان يهود هذه القبيلة أثرياء لاحتكارهم العمل بصياغة الذهب وبيعه ، فهم لم يكونوا يعملون بالزراعة ولم تكن لهم أرض يزرعونها ، وكانت لهم سوق تحمل اسمهم . وفى ذات يوم ـــ عقب غزوة بدر ـــ توجهت امرأة مسلمة إلى سوقهم ، وقصدت صائغا

يهوديا لأجل أن تشترى منه حليا، وبينما هى جالسة/إذ أقبل بعض اليهود ، وطلبوا منها أن تكشف عن وجهها ، فلما أبت عمد الصائغ نفسه إلى ذيل ثوبها فعقده بظهرها وهى لاتشعر ، فلما قامت بدت عورتها ، فأخذ اليهود يضحكون منها ، فصاحت فأقبل على صياحها رجل من المسلمين ، فلما رأى ما يحدث قتل الصائغ ، فشد اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهلُه المسلمين ، فأقبلوا ووقع الصدام بينهم وبين اليهود ، وأسرع بنو قينقاع بالارتداد إلى حصونهم استعدادا لقتال المسلمين ، وذلك بدلا من أن يحتكموا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيما حدث كما يقضى بذلك عقد الموادعة . ومن وراء حصونهم القوية أعلنوا المسلمين بالحرب على الرغم من أنهم هم الذين بدءوا العدوان ، ثم إن المسلم الذى قتل اليهودى قُتِل هو أيضا مما كان سيجعل حل المشكلة سهلا . ولكنهم لم يكونوا يريدون حلا ، بل حربا كحرب سمير وبعاث يقاتل فيها العرب بعضهم بعضا .

وكان قد سبق ليهود بنى قينقاع أن استفزوا المسلمين وتحدوهم ، مما جعل الرسول يحذرهم من مغبة ذلك وينصحهم بالكف عن ذلك ، فإذا بهم يقولون له فى عنجهية وصلف : يامحمد لا يغرنَّك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، يقصدون من ذلك أنهم على علم بالحرب وأنهم سوف يلحقون بالمسلمين الهزيمة ، فهم ليسوا كالكفار الذين هزمهم المسلمون ببدر . وفى هذا مايدل على أن بنى قينقاع ومن ورائهم بقية اليهود إنما أرادوا أن

يستدرجوا المسلمين إلى معركة يهزمونهم فيها؛ فيقضوا بذلك على الأثر الذى أحدثه انتصارهم فى بدر .

ومن المستبعد أن يكون ماحدث من الصائغ اليهودى تصرفا فرديا ؛ لأنه لو كان كذلك لَتصدَّى له اليهود من قريظة والنضير ، حرصا منهم على استمرار السلام والهدوء بينهم وبين المسلمين . ولكن الذى حدث أن الجميع أخذوا يسخرون من المرأة المسلمة وقد بدت عورتها ، وهو تصرف حقير من رجال ضد امرأة لا حول لها ولا قوة .

والراجح أنه كان هناك اتفاق بين اليهود ورأس النفاق عبد الله بن أُبَيِّ بن سلول بشأن إشعال الفتنة واستدراج المسلمين إلى الحرب وهزيمتهم بعد أن استفحل خطرهم نتيجة لانتصارهم فى بدر ، فما إن يحدث الصدام حتى يتقدم هذا المنافق وأتباعه لنصرة مواليه من اليهود ، وينضم إليهم يهود بنى النضير وبنى قريظة وغيرهم من اليهود الذين كانوا يقيمون حول المدينة ، فتدور الدائرة على المسلمين وينتهى أمرهم ، إما إلى هزيمة ساحقة تقضى عليهم ، وإما إلى ضعف شديد يجعلهم لايمثلون أى خطر على اليهود .

فماذا كان على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يفعل فى هذه الحالة ؟ لقد كان أمامه بعض الخيارات ، وهى أن يطلب من المسلمين التحلى بضبط النفس ، وكأنه ليس طرفا فى المشكلة . وهو مايفعله البعض الآن كلما ارتكب اليهود جريمة فى حق إخواننا الفلسطينيين . أو أن يفاوض اليهود فيعرف ماذا يريدون وما الذى لايريدونه ،

وعندئذ يدخلونه فى متاهة ليس لها آخر ، وتمتد المفاوضات فى حين أنهم يعدون العدة لتوجيه ضربة قاضية إلى المسلمين . أو أن يلجأ إلى الدولة الفارسية التى كان اليهود يدينون لها بالولاء يرجوها أن تمارس عليهم ضغطا من أجل أن يلينوا ويسلموا للمسلمين بجزء من مطالبهم ، وإذا راجعه أحد من المسلمين قال له إن جميع أوراق اللعب فى يد فارس . أو أن يلجأ إلى المعسكر الآخر ، معسكر القسطنطينية يدعوها للاشتراك فى مؤتمر دولى الغرض منه التوسل إلى اليهود لكى يستجيبوا لبعض مطالب المسلمين ، ويقسم لهم على حبه للسلام ، بل عشقه له ، وأنه لا يمانع فى الاعتراف لليهود بكل مايزعمون أنه حق لهم . أما الخيار الأخير فهو أن يواجه عدوانهم بالقوة والحزم والعزم فينبذ إليهم على سواء ، طالما أنه يخاف من خيانتهم ، كما أمره الله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ (٢).

وهكذا بادر الرسول صلى الله عليه وسلم فحاصر حَىَّ بنى قينقاع بحصونه القوية قبل أن ينضم إليهم آخرون ، فأحاط بهم كما يحيط السوار بالمعصم بحيث منع عنهم الإمدادات ، وحال دون اتصالهم باليهود من بنى قريظة والنضير والمنافقين أتباع عبد الله بن أبى بن سلول . وانتظر بنو قينقاع أن يمد إليهم أحد من هؤلاء يده بالمساعدة دون جدوى . فقد تريث بنو النضير وقريظة ريثما يبدأ عبد الله بن أُبَىّ الهجوم فيتبعونه ، فى حين جبن هذا عن التصرف .

---

(٢) الأنفال - الآية ٥٨

وهنا تظهر براعة الرسول العسكرية وبُعْدُ نظره وحكمته وإلمامه الكامل بكل أبعاد الموقف وبطبيعة المشاركين فيه . ففضلا عن قطعه لأى اتصال بين بنى قينقاع وأنصارهم ، فإن تبكيره بشن الهجوم على هذا النحو كانت له مزايا أخرى : منها بث الخوف فى نفوس اليهود ، وهز الثقة بأنفسهم وبقوتهم وإقناعهم بأن جرأة المسلمين ليست من فراغ ، وهو ماظهر بوضوح من رد فعلهم ، حيث بدوا وكأنما أصيبوا بالشلل ، فلبثوا داخل حصونهم لايدرون كيف يتصرفون ، على الرغم من أنه كان لديهم سبعمائة مقاتل منهم أربعمائة مدرعون . وهذا العدد يزيد على عدد المسلمين الذين حاصروا القلاع . ونسى اليهود ما سبق أن توعدوا به الرسول إذا مانشبت الحرب بينهم وبينه .

وهكذا استمر الحصار مضروبا عليهم خمس عشرة ليلة دون أن يمد إليهم أحد يد المساعدة ، ومما يرجح أن تكون قوة المسلمين أقل من قوة اليهود أن عدد المسلمين يوم بدر كان حوالى ثلاثمائة وعشرة رجال مابين مهاجرين وأنصار ، ولا نظن أنها زادت كثيرا يوم حصار يهود بنى قينقاع الذى حدث بعد مدة قصيرة من معركة بدر . فلما أيقنوا أن أحدا لن يساعدهم اضطروا إلى الاستسلام للرسول صلى الله عليه وسلم . وكان كل مافعله عبد الله بن أبى من أجلهم أن طلب من الرسول تركهم ليغادروا المدينة بعد مصادرة أموالهم ، فأخرجوا جميعا إلى أذرعات وهم يحملون أموالهم وأثقالهم وخفيف سلاحهم .

ويهمنا بهذه المناسبة أن نعلق على ماجاء ببعض الروايات التى تناولت غزوة بنى قينقاع ؛ نظرا لما اشتملت عليه من أمور لا نعتقد

بصحتها ، ونرجح ــ والله أعلم ــ أن تكون مما أضافه الرواة فيما بعد . يقول ابن الأثير : إنه لما نزل يهود بنى قينقاع على حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أمر فكتفوا ، وهو يريد قتلهم ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فقام إليه عبد الله بن أبى بن سلول فكلمه فيهم ، فلم يجبه ، فأدخل يده فى جيب رسول الله (أى فى فتحة صدره) فغضب رسول الله وقال له : ويحك أرسلنى . فقال : لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود تحصدهم فى غداة واحدة ، وإنى والله لأخشى الدوائر . فقال النبى : هم لك ، خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم .

والقصة على هذا الوجه يفهم منها أنه لولا تدخل عبد الله بن أبى بهذه الطريقة العنيفة لكان الرسول قد قتلهم . وهذا غير صحيح فى رأينا ؛ فالرسول لم يكن ينوى قتلهم ، وإلا لقتل يهود بنى النضير فيما بعد ، وهو لم يلمح أو يصرح بانصراف نيته إلى قتلهم . كما أن نزولهم على حكمه لا يفهم منه أنه كان قد حكم بقتلهم . ولو أنه كان قد رأى أن يقتلهم ماكان تدخل عبد الله بن أبى بالذى يجعله يعدل عن قراره ، وبهذه الصورة غير الكريمة التى ستجعله يبدو كما لو كان خائفا من عبد الله بن أبى .

أما عن التصرف الذى نسب إلى عبد الله بن أبى وهو أنه أمسك بتلابيب الرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حد أن أعجزه عن تخليص نفسه أو اضطر إلى أن يطلب منه أن يتركه ، فإنه تصرف مستحيل لأكثر من سبب : فمن ناحية لايتصور صدوره عن منافق

جبان مثل ابن أُبَيّ ، اعتراه الخوف من يهودى هو كعب بن أسد القرظى لما توعد بالانتقام منه بعد وقعة بعاث ، وأخذ يقسم له إنه لم يشترك فى المعركة ويأتى إليه بالشهود يؤيدون دفاعه ، فمثله لايجرؤ على الإمساك بتلابيب الرسول ، وأمام من ؟ أمام عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وحمزة وغيرهم من الصحابة الذين كان الواحد منهم لايتردد فى التضحية بنفسه فداء للرسول ـــ ثم أين عبد الله بن أبى من الرسول بقوته ومهابته بحيث يقدم على إتيان مثل هذا التصرف معه دون خوف أو وجل ، وهو الذى كان لاينفك يقسم على إخلاصه ، بل ويكذب فيما يتعلق بما ينسب إليه ، ويتظاهر بالبراءة وسلامة النية؟ إن أقصى مايمكن أن يفعله من كان مثل ابن أبى أن يتوسل ويرجو لا أن يتشاجر ويقسو .. والغالب أنه ظن أن الرسول سيقتل رجال بنى قينقاع فتوسل إليه أن يكتفى بطردهم إلى أذرعات .

وهكذا فشلت المؤامرة ولم يفلح اليهود وأعوانهم فى بذر بذور الفتنة بين العرب ، وشق صفهم كما كانوا يفعلون قبل الإسلام . ولكن هل استفاد اليهود من هذا الدرس ؟ كلا . فإن ماحدث زادهم حِقداً على المسلمين ، وأجج فى نفوسهم الرغبة فى الانتقام منهم ، وكان تقاعس عبدالله بن أبى عن مساعدة بنى قينقاع سببا فى لجوء يهود بنى النضير إلى المشركين فى مكة وغيرها يتآمرون معهم ضد المسلمين ويمدونهم بالمعلومات التى تفيدهم فى صراعهم معهم . فأخذوا يتجسسون على المسلمين ، ويبحثون عن نقاط الضعف لديهم ليدلوا المشركين عليها .

وكان على رأس الجواسيس اليهود سلام بن مشكم سيد بنى النضير ، الذى اجتمع بأبى سفيان بالقرب من المدينة وأبلغه بالأوضاع فى المدينة وبنقطة الضعف فى حدودها ، وحثه على انتهاز الفرصة وغزوها ومباغتة المسلمين بحيث يمكنه أن يوقع بهم الهزيمة . وعلى الفور وجَّه أبو سفيان حملة هاجمت المدينة من المكان الذى دلَّه عليه سلام بن مشكم ، فقامت بحرق النخيل وقتل رجل من الأنصار وحليف له ، فلما شعر بهم المسلمون ونهضوا لردهم بادروا بالفرار وهم يلقون جرب السويق بقصد التخفف وسرعة الهروب ؛ فلذلك سميت غزوة السويق ، وكان ذلك فى السنة الثانية للهجرة .

استخدام اليهود الشعر للطعن فى أعراض المسلمات

وحزَّ فى نفوس اليهود أن تفشل الهجمة التى شنها الكفار ، فعادوا إلى الشعر ينظمه شعراؤهم يُعَرضون فيه بالرسول وبالمسلمين والمسلمات . وتقول دائرة المعارف الإسلامية : إنه كان للشعراء فى الجزيرة العربية سلطان يفوق سلطان الصحافة فى الأزمنة الحديثة ؛ إذ كان العرب يحسبون بأن فيهم شيئا خارقا أو سحريا . وكان هناك شاعر يهودى يدعى كعب بن الأشرف ، كانت أمه من بنى النضير ، ذهب إلى مكة وأخذ يحرض قريشا على قتال المسلمين ، ثم عاد إلى المدينة ، فدخل حصنه وراح ينظم شعرا يشبب فيه بنساء المسلمين ويطعن فى أعراضهن ويشكك فى عفافهن ، حتى يهيج مشاعر الرجال ضدهن ويوقع بينهم . وعندئذ أصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره بقتله ، فتطوع لتنفيذ الأمر خمسة رجال من المسلمين مضوا إلى حيث يقيم كعب بن الأشرف فى حصنه فى حى بنى النضير فأنفذوا

فيه الحكم . ولما قتلوه خافت اليهود وأصبحت المدينة ليس فيها يهودى إلا وهو يخاف على نفسه بعد أن وجدوا أن حيهم لم يعد يخيف المسلمين كما كان يخيف العرب قبل الإسلام ، وأدركوا أن أى أساءة إلى الإسلام أو المسلمين لن تمر بدون عقاب .

ومما قاله كعب بن الأشرف فى التشبيب بأم الفضل بنت الحارث امرأة العباس بن عبدالمطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول امرأة آمنت بعد السيدة خديجة ، وهى أخت زوج الرسول :

أراحل أنت لم تحلل بمنقبة ... وتارك أنت أُمَّ الفضل بالحرم
صفراء وادعة لو تعصر انعصرت ... من ذى القوارير والحناء والكتم
يرتج مابين كعبيها ومرفقها ... إذا تأتت قياما ثم لم تقم
أشباه أم حكيم إذ تواصلنا ... والحبل منها متين غير منجذم
إحدى بنى عامر جن الفؤاد بها ... ولو تشاء شفت كعبا من السقم

وغير هذا كثير مما أراد أن يسىء فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى آله

غزوة بنى النضير

ولكن يبدو أن يهود خيبر ظنوا أن بُعْدَ مدينتهم عن المدينة يحول دون وصول أيدى المسلمين إلى من يقيمون بها ، فأخذ أحد زعمائها وهو أبو رافع سلام بن أبى الحقيق يؤذى الرسول بكلامه ويحرض على المسلمين ، وقد غاظه أن يُقْتَل كعبُ بن الأشرفَ ، فصدر الأمر بقتله . وخرج خمسة رجال إلى خيبر ، فتحايلوا حتى وصلوا إليه فى حصنه فقتلوه ثم عادوا إلى المدينة .

وعلى الرغم من كل ماكان اليهود يفعلونه ، سواء فى السر أو فى

العلن، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستبعدهم من عقد الموادعة ، واكتفى بأن يطبق العقاب المناسب على من يخالف العقد . فلم يشأ أن يأخذهم جميعا بجريرة البعض منهم . ومع ذلك فإنهم لم يقدروا له ذلك ، واستمروا فى الكيد والدس والخداع والتضليل والتجسس والسعى بالوقيعة دون كلل أو ملل .

وليس من شك فى أن ماحدث ليهود بنى قينقاع ثم لابن الأشرف ولأبى رافع قد فتَّ فى عضد اليهود ، وضاعف من خوفهم من المسلمين ، وإلا بادروا إلى مساعدة قريش يوم أُحد ، ولكنهم لم يفعلوا ، واكتفوا بإظهار الفرح والشماتة فى المسلمين لما وقعت بهم الهزيمة نتيجة لعدم لتزام بعضهم بتعليمات رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويبدو أنهم ظنوا أن ماحدث فى أُحد قد أضعف المسلمين وجعلهم هدفا سهلا ، فلما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حى بنى النضير يستعين بهم على أداء دية رجلين من بنى عامر كان قد قتلهما عمرو بن أمية وهو يجهل أنهما أسلما ، وكان عقد الموادعة بين المسلمين واليهود ينص على أن يقدم أحد الطرفين المساعدة والعون للآخر إذا احتاج إليها ، وهو ماجعل الرسول يلجأ لبنى النضير ليقرضوه المال اللازم للدية.. لما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأخبرهم بما جاء من أجله لم يرفضوا ، بل رحبوا ثم خلا بعضهم ببعض ، وبدلا من أن يتباحثوا فى تدبير المال المطلوب تآمروا على قتل الرسول الذى كان قد جلس إلى جانب جدار ينتظر عودتهم

بالمال ومعه أصحابه ، وانتهى رأى اليهود إلى قتل الرسول بواسطة حجر يلقيه عليه أحدهم من أعلى الجدار ، ونسوا أو تناسوا أنه نبىٌّ رسول ياتيه خبر السماء ، ولما جاء الرسول الخبرُ من السماء بما عقدوا عليه العزم بادر إلى الانصراف دون أن يخبر أصحابه ، فلما استبطئوا عودته لحقوا به فى المدينة حيث أخبرهم بما كان من اليهود ، وأصدر أمره إلى المسلمين بالاستعداد لحرب بنى النضير الذين خرقوا العهد بمؤمراتهم الدنيئة ، وعلى الفور تم جمع الجيش وسار إلى حى بنى النضير حيث تقع حصونهم فحاصرها ، وبهذا حال دون اتخاذهم الأهبة ومنع وصول أحد إليهم ممن يناصرونهم ، أو خروج أحد منهم للتدبير لفك الحصار ، وبالتالى جعلهم يعيشون فى حالة من القلق على مصيرهم ، وهو القلق الذى أخذ يزداد كل يوم مع جهلهم بما يدور خارج الحصون المحاصرة . كما منع وصول أى إمدادات إليهم ، وكانوا أينما ولوا وجوههم من فوق حصونهم تصطدم أنظارهم بالمقاتلين المسلمين وهم يحيطون بهم من كل جانب يحملون أسلحتهم ، ويقفون متربصين لكل من يحاول فك الحصار . ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الاستسلام حقنا للدماء وتجنبا للخسائر ، ولكنهم أبَوْا فأمر بقطع نخيلهم وإحراقها ، فحاصرتهم النيران وضايقهم الدخان وأيقنوا بالهلاك .

وكما حدث مع يهود بنى قينقاع من قبل ، فإن حليفهم عبد الله بن أُبَىّ لم يفعل شيئا لنصرتهم ، وكل ما أمكنه عمله أن أرسل إليهم يدعوهم إلى أن يثبتوا ويتمنعوا قائلا إنه لن يسلمهم أبدا ، وإن قوتلوا

فسوف يقاتل معهم ، وإن خرجوا فسيخرج معهم . وهو كلام لم يتحقق منه شيء ؛ فقد ظلوا محاصرين فى حصونهم فى حالة من الخوف الشديد والفزع رغم ماكان لديهم من مقاتلين لايقل عددهم عن عدد المقاتلين المسلمين وقد يزيدون ، فضلا عن السلاح والعتاد .

ولما أيقنوا أن أحدا لن يمد إليهم يد المساعدة ، لاعبد الله بن أبى ولا بنو قريظة عرضوا على النبى أن يجليهم ويكف عن دمائهم ، على أن لهم ماحملت الإبل من الأموال دون السلاح ، فأجابهم إلى ذلك فخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام .

أما الذين ذهبوا إلى خيبر فكان على رأسهم عبد الله بن سلام بن أبى الحقيق ، وحيى بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق الذين لم يرضهم ما حدث لهم فعقدوا العزم على الانتقام من المسلمين ، ووضعوا من أجل ذلك خطة خطيرة تقوم على حشد كل القوى المعادية للإسلام لتوجيه ضربة قاضية إلى المسلمين بالمدينة بحيث لاتقوم لهم بعدها قائمة ، وعلى ذلك فقد أخذوا يجرون اتصالات مكثفة بالقبائل العربية فى مكة وغيرها ، كما اتصلوا بالمنافقين فى المدينة واتفقوا معهم على إضعاف جبهة المسلمين بواسطة الشائعات والأكاذيب ، يطلقونها هنا وهناك من أجل بث الشك فى نفوس المسلمين بشأن جدوى الحرب بينهم وبين الكفار الذين يفوقونهم فى العدد والعدة ، والذين سيهاجمون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الأطفال فضلا عن الكبار ، ويستولون على الأموال ثابتة ومنقولة .

ونجح حيى بن أخطب سيد بنى النضير فى تكوين جبهة من قريش

وغطفان وبعض القبائل الأخرى ، وهكذا تحرك جيش مكون من أكثر من عشرة آلاف مقاتل متجها إلى المدينة للقضاء على مابها من المسلمين ، وفى مقدمتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتم إبلاغ عبد الله بن أبى بذلك لكى ينشط إلى تفرقة المسلمين وجعل أكبر عددهم ينفض من حول الرسول .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشاور المسلمين فى الأمور التى لم ينزل عليه الوحى بشأنها ، فلما علم بتحرك جيش الأحزاب نحو المدينة بادر إلى عقد اجتماع حضره الصحابة لمناقشة الأمر والتوصل إلى أفضل طريقة يواجه بها المسلمون هذا الجيش الذى لم تشهد له المنطقة مثيلا من قبل ، واقترح الرسول أن يتحصنوا فى المدينة ذاتها ويخوضوا المعركة بداخلها حيث يمكنهم حصر المشركين فى دروبها وطرقها ، وعلى الفور أعلن عبد الله بن أبى موافقته على هذه الخطة ، بل وأخذ يزينها للحاضرين ويبالغ فى وصف مزاياها وفوائدها للمسلمين ، ولكن آخرين اقترحوا أن يدور القتال خارج المدينة ، وذكروا مزاياه ، وأضاف سلمان الفارسى اقتراحه بحفر خندق على حدود المدينة فى الجانب الذى يخلو من التحصينات الطبيعية ومن حصون بنى قريظة الذين لايزالون حلفاء للمسلمين ، بحيث يعرقل تقدم الكفار نحو المدينة ويتيح للمسلمين الفرصة لقتال من يجتاز الخندق من مقاتليهم ، ولكن عبد الله بن أبى عارض هذا الاقتراح ؛ لأنه يفوت عليه فرصة الغدر بالمسلمين إذا دارت المعركة داخل المدينة حيث يمكنه أن ينضم إلى صفوف الكفار ويسلمهم المواقع التى تعهد للمسلمين بالدفاع عنها .

وعلى الرغم من عدم أخذ الرسول بوجهة نظره ، فإنه لم ييأس واستمر فى نشاطه الهادف إلى خلخلة صفوف المسلمين وجعلهم ينصرفون عن الرسول. ففى أثناء حفر الخندق كان أتباعه يهمسون فى آذان المسلمين بكلام من شأنه أن يبعث الخوف فى نفوسهم ويشككهم فى نتيجة الحرب ، بل وبلغت الجرأة ببعضهم حدا لم يسبق أن وصلوا إليه من قبل ، حيث أخذوا يشككون فى وعد الله ورسوله لهم بالنصر ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [٣] بل لا يكتفون بذلك وإنما يضيفون إلى التشكيك بالأقوال الانسحاب من مواقعهم قائلين ﴿ إِن بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [٤] وهو تصرف مقصود به إصابة الآخرين بالخوف على بيوتهم وأولادهم ، وبالتالى فرارهم هم أيضا ، وبذلك تنهار جبهة المسلمين ، ويجتاحها الكفار واليهود يعملون فيمن تبقى الذبح والتقتيل إلى أن يستأصلوا شأفتهم وينتهى أمر الإسلام .

وليت الأمر وقف عند حصار الأحزاب للمدينة ، وترقبهم سنوح الفرصة لاجتياز الخندق والاشتباك مع المسلمين فى معركة ضارية ، فهذا ماكان المسلمون قد هَيَّئُوا أنفسهم لحدوثه واتخذوا الأهبة لمواجهته . ولكن الذى حدث كان أخطر من ذلك بكثير حيث

---

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ١٢

(٤) آخر الآية ١٣ من سورة الأحزاب .

فوجئوا بخيانة يهود بنى قريظة لهم وانضمامهم إلى الكفار ، مما أدى إلى انكشاف ظهر جيش المسلمين ، بل وصيرورته عرضة للهجوم عليه من جانب اليهود من بنى قريظة ومعهم يهود بنى النضير الذين جاءوا مع حيى بن أخطب من خيبر ، فضلا عن اليهود الآخرين الذين كانوا يقيمون بالقرب من المدينة ولا يستبعد انضمامهم إلى إخوانهم فى أية لحظة .

وكان حيى بن أخطب العدو اللّدود لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد نجح فى إقناع كعب بن أسد زعيم بنى قريظة بنكث عهده للرسول ، وحمله على الغدر بالمسلمين قائلا له : يا كعب قد جئتك بعز الدهور وببحر طام ، جئتك بقريش وقادتها وسادتها ، وغطفان بقادتها ، وقد عاهدونى أنهم لايبرحون حتى يستأصلوا محمدا وأصحابه ، وعاهده حيى إن عادت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدا أن يدخل معه فى حصنه حتى يصيبه مايصيبه .

ولما انتهى خبر اتفاق كعب بن أسد القرظى وحيى بن أخطب إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يتأكد، فبعث سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج ، وسعد بن معاذ سيد الأوس ، ومعهما عبد الله ابن رواحة وخوات بن جبير ، وقال لهم : « انطلقوا إلى بنى قريظة فإن كان ماقيل لنا حقا فالحنوا لنا لحناً ولاتفتُّوا فى أعضاد الناس . وإن كان كذبا فاجهروا به للناس » فانطلقوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ماقيل لهم عنهم ، ونالوا من الرسول وقالوا : لا عهد له عندنا ، فشاتمهم سعد وشاتموه ، وكانت فيه حدة ، فقال له سعد بن

عبادة : دع عنك مشاتمتهم فالذى بيننا وبينهم أكثر من ذلك ، ثم أقبل سعد وسعد حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جماعة المسلمين فقالا : عضل والقارة - يعرضان بغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع حبيب وأصحابه- فقال نبى الله صلى الله عليه وسلم : أبْشِروا يامعشر المسلمين ، وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف .

وكيف لايعظم البلاء ويشتد الخوف وقد وجد المسلمون أنفسهم فجأة بين عَدُوَّيْن لَدُودَيْن عقدا العزم على استئصالهم والقضاء على الإسلام؟ إن كل ما واجهوه من أخطار لايُقارَن بهذا الخطر ، حتى يوم أحُد لم يكن الخطر بهذا القدر ، فهم لم يحاصروا بعشرة الاف مقاتل من تحتهم ، وبألف أو يزيد من فوقهم ، هم مقاتلو بنى قريظة والنضير . ولن يجد الإنسان وصفا لحالة المسلمين فى هذا الموقف العصيب أدق ولا أعظم من وصف القرآن الكريم لهم ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (٥) لقد أصيب المسلمون بالذهول ، واختنقت أنفاسهم حتى كادت تزهق أرواحهم لما علموا بما دُبِّر لهم ، ليس ذلك وحسب ، بل إن هؤلاء الرجال الذين لم يهتز إيمانهم بالله أبدا فى أى موقف مهما كان عصيبا ساورتهم الظنون بشأن تأييد الله لهم وغلب على ظنهم أنه قد تخلى عنهم . ومما زاد الطينَ بلَّةً ذلك النشاط المحموم

(٥) الآيتان ١٠ و١١ من سورة الأحزاب

الذى قام به المنافقون وسط المسلمين لتثبيط عزائمهم وتحطيم معنوياتهم : فمنهم المولول النادب لحظه وحظ أولاده ، ومنهم الهارب يتعلل بالخوف على بيته وأولاده ولقد ندد الله تعالى بهم فى قوله : ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ (٦).

(٦) الآيات من ١٥ إلى ١٩ من سورة الأحزاب

لقد كانت محنة شديدة بكل المقاييس . ولم يكتف يهود بنى قريظة بالانضمام إلى الأحزاب وتهديد ظهر جيش المسلمين ، بل أطلقوا عملاءهم خلف المسلمين يتجسسون عليهم للتعرف على ترتيباتهم ويخيفون النساء والأطفال وكبار السن من الرجال الذين تركهم المسلمون وراءهم حتى لايتعرضوا للإصابة فى حالة نشوب المعركة . ومما يروى فى ذلك أن السيدة صفية عمة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت فى حصن حسان بن ثابت الشاعر ، وكان حسان فيه مع النساء؛ لأنه كان جبانا ، وبينما هى تظل خارج الحصن إذ رأت يهوديا يطوف بالمكان متجسسا فطلبت من حسان أن ينزل إليه ليقتله حتى لا يدل على عورات المسلمين ، فامتنع حسان ، وعندئذ أخذت عمودا ونزلت إلى اليهودى فباغتته وقتلته ، ثم رجعت إلى حسان فطلبت منه أن ينزل ليأخذ سلب اليهودى؛ لأنها شعرت بحرج من فعل ذلك ولأنه رجل ، فأجابها حسان بأنه ليس به حاجة إلى سلب الجاسوس اليهودى .

وتتابعت الأيام والحصار مستمر ، الكفار من الأمام واليهود من الخلف ، والأحوال تزداد سوءاً ، وأخذ الرسول العظيم يفكر ويدبر ويدعو الله أن يفرج الكرب ، ويذهب الخوف والفزع من نفوس المسلمين ، وفى نفس الوقت يحاول أن يأخذ بالأسباب ليعلم المسلمين أن النصر والنجاح والفلاح لاتكون إلا بالعمل والبذل والتضحية وإعمال الفكر ، وأن الاسلام ليس تصريحاً أبدياً للمسلمين باحتكار النصر والرفعة والثروة والجاه دون جهد أو عناء . وكان مما فعله أن تفاوض مع غطفان فعرض أن تنسحب من الحِلْف مقابل أموال تُدفَع

لها . وكما هى عادة الرسول فى كل ماليس بوحى ، فقد شاور أصحابه فاعترضوا فأوقف المفاوضات . وإن كان مجرد إجرائها قد أحدث أثرًا سيئا فى نفوس الحلفاء حيث تسرب الشك إلى نفوس زعماء قريش فى مدى إخلاص غطفان للهدف الذى جاءوا من أجله ، كما أن غطفان كانت قد ملت من الانتظار دون شن هجوم على المسلمين ، فى حين أن اليهود كعادتهم – ينتظرون أن تبدأ الأحزاب الهجوم ، وتتلقى الصدمات الأولى بما تحتمله من خسائر فى الأرواح والعتاد ، ثم يتحركوا هم ليصولوا ويجولوا فى ميدان المعركة التى أوشكت أن تنتهى فيمعنوا قتلا فى المسلمين وسلبا لأموالهم ، وبعد ذلك يتحدثون عن بطولات مقاتليهم وبلاء جيوشهم .

ولما استبطأتهم الأحزاب بعثت إليهم بوفد يحثهم على البدء فى الهجوم على مؤخرة جيش المسلمين ، ولكنهم تعللوا بأن اليوم سبت لايعملون فيه شيئا ، وطلبوا إمهالهم إلى يوم آخر على أن تعطيهم الأحزاب رهائن من رجالها ضمانا لعدم تخليها عنهم وتركها إياهم للرسول صلى الله عليه وسلم لينتقم منهم . وكان الذى اقترح عليهم ذلك رجل من المسلمين اسمه نعيم بن مسعود ، لم يكونوا يعلمون بإسلامه كما كان موضع ثقتهم . كذلك قام نعيم فى الوقت نفسه بإبلاغ قريش وغطفان أن اليهود يسيئون الظن بهم وأنهم لذلك سيطلبون منهم عددا من الرهائن لكى يسلموهم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم كدليل على بقائهم على العهد وإخلاصهم للرسول وغدرهم بالكفار . فلما أبلغ اليهود الأحزاب بطلبهم الخاص

بتسليمهم الرهائن صدَّقوا ما قاله لهم نعيم ، فرفضوا الاستجابة لطلب اليهود ورفض اليهود بالتالى دخول الحرب .

عندئذ ، وبعد أن أخذ المسلمون بالأسباب وصمدوا وتحملوا وثابروا ، تدخلت إرادة الله العظيم الرحيم بعباده فانطلقت الرياح من عقالها عاصفة تجتاح فى طريقها كل شىء حتى القدور الثقيلة دفعتها الرياح كما لو كانت قطعا من الورق وتطايرت الخيام فى الهواء ، وأجفلت الخيل وثارت الإبل واختلط الحابل بالنابل ، فانتقل الفزع من معسكر المسلمين إلى معسكر الكفار وارتفع الصراخ ، واختلطت النداءات ، فلا أحد يدرى إلى أين حملته الرياح ولا أين أصحابه ، وتبدد جيش الكفر وولى هاربا وهو لايصدق أنه قد نجا ، وعادت قريش تجر أذيال الخيبة والعار ، وكانت غطفان قد سبقتها مطاطئة الرأس ذليلة تصب اللعنات على حيى بن أخطب وعلى اليهود الذين استدرجوها إلى هذه الكارثة . أما اليهود من بنى قريظة وبنى النضير فقد ارتدوا إلى حصونهم بمقاتليهم الثمانمائة ، يجرون أذيال الخيبة يرتعدون فَرَقاً وخوفا مما سوف يصيبهم نتيجة لخيانتهم .

وفيما يتعلق بعدد المقاتلين المسلمين الذين واجهوا الأحزاب واليهود ، فإن الآراء قد اختلفت بشأنه : فهناك رأى يذهب إلى أنه كان سبعمائة مقاتل ، وهناك رأى آخر يذهب إلى أن عددهم كان ثلاثة آلاف مقاتل ، فضلا عن الآراء الأخرى التى تذكر أعدادا تتراوح بين الرقمين السابقين . وفى رأينا أن القول بأن عدد المقاتلين المسلمين كان ثلاثة آلاف فيه مبالغة شديدة ، ثم إن الفرق بين

السبعمائة والثلاثة الآلاف فرق كبير جدا ، ولايعقل أن يكون البعض قد لاحظ أن جيش المسلمين كان سبعمائة ، فى حين يلاحظ البعض الآخر أنه كان ثلاثة آلاف ؛ لأن الفرق بين الرقمين من الضخامة بحيث لاتخطئه العين . وعموما فإن ملاحظتنا على العدد الذى ذكره المؤرخون من الفريقين تستند إلى الأسباب الآتية :

أولا – أن عدد المسلمين الذين اشتركوا فى غزوة أحد كان سبعمائة ، ولما كانت المدة التى انقضت بين هذه الغزوة وبين غزوة الخندق حوالى عام ، فإنه من غير المتصور أن يكون عددهم قد زاد بهذا الشكل ليصل إلى ثلاثة آلاف .

ثانيا : أنه طبقا لما قيل من أن توزيع العمل فى حفر الخندق قد جرى على أساس أن لكل عشرة رجال من المسلمين أربعين ذراعا ، مما يعنى أن طول الخندق كان اثنى عشر ألف ذراع وهو مايساوى تسعمائة ألف سم (الذراع = ٧٥ سم) أو ٩٠٠٠ متر ، أى ٩ كم ونرجح أن هذا كان طول الجهة من المدينة الخالية من العوائق الطبيعية والحصون ؛ لأنه لايعقل أن يكون قطرها ، المدينة تسعة كيلو مترات فقط ، خاصة إذا لاحظنا أنها كانت مكونة من أحياء تفصل بينها فى بعض الأحوال أميال . والذى نرجحه أن الذين اشتركوا فى حفر الخندق لم يكونوا كلهم من المقاتلين ، وإنما اشترك معهم آخرون ، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع الخندق وعمقه وطبيعة الأرض وغير ذلك ، وأيضا المدة التى استغرقها الحفر ، وكذلك عدد ساعات العمل .

ثالثا : أن غزوة خيبر ، التى سيأتى ذكرها فيما بعد ، على خطورتها ؛ لبعدها من ناحية ، ولكونها مستعمرة يهودية حصينة كل سكانها من اليهود ـــ لم يزد عدد المقاتلين المسلمين الذين اشتركوا فى غزوها على ١٤٠٠ راجل و٢٠٠ فارس . وكان بينها وبين الأحزاب أكثر من عام ، وبينها وبين أُحُد أكثر من عامين ، أى أنها مدة كافية لأن يتضاعف المسلمون ، خاصة بعد الانتصار الكبير فى غزوة الأحزاب ثم فى بنى قريظة وفى غيرها ، فضلا عن صلح الحديبية .

ومع ذلك ، وحتى لو أننا افترضنا أن عدد المسلمين الذين تصدوا للأحزاب كان قد بلغ فى أول الأمر ثلاثة آلاف مقاتل ، وهو ماذكره البعض – فإن هذا الرقم مالبث أن انخفض إلى الرقم الآخر ، وهو السبعمائة ، نتيجة لفرار المنافقين والخائفين الذين تأثروا بدعايات أتباع عبد الله بن أُبَىّ بن سلول . وهذا ما أردنا أن نبينه بالنسبة لما لاحظناه ويلاحظه من يقرأ التاريخ الاسلامى من تفاوت كبير بين البيانات ، وبخاصة ما كان منها له علاقة بالغزوات والمعارك .

ثم نأتى إلى آخر معركة ، أو غزوة من الغزوات التى استهدفت طرد اليهود من مستوطناتهم فى المدينة ، وهى غزوة بنى قريظة . ويلاحظ من يقرأ ماكتبه المستشرقون والمؤرخون الغربيون عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ـــ اهتمامهم الشديد بهذه الغزوة التى استغلوا ما انتهت إليه للإساءة إلى الإسلام والمسلمين ، حيث لم يكفوا عن التنديد بما حدث من قتل المقاتلة من اليهود ، وكان عددهم سبعمائة ، وفى قول آخر ثمانمائة ، وتباروا فيما بينهم فى إظهار العطف

والحزن والأسى لمقتل هذا العدد الكبير مما يوحى لمن يقرأ لهم أنهم أناس جبلوا على الرحمة ، وطبعوا على الشفقة ، وليسوا قتلة سفاحين تقطر أيديهم وأفواههم بدماء الملايين من الأبرياء الذين غزوا بلادهم ، وعاثوا فيها فسادا ونهبوها بطريقة بشعة واستنزفوا ثرواتها ، وهاهم يعيشون فى رغد من العيش بفضل الثروات التى سرقوها ، فى حين أن أصحاب هذه الثروات الحقيقيين يعانون من الفقر والجوع والتخلف .

لقد تجاهلوا عن عمد ماذكرناه حالا من تصرفات يهود بنى قريظة ، وما كان سيؤدى إليه من قضاء على الإسلام وإبادة للمسلمين ، ومضوا يذرفون الدموع على القتلى الأبرياء أجداد العصابات الصهيونية المجرمة التى أعملت الذبح والتقتيل فى الفلسطينيين الأبرياء العزل الذين كانوا يقيمون فى قراهم آمنين يظنون أن جنود بريطانيا التى كانت عظمى سيحمونهم بموجب مايفرضه عليهم قرار الانتداب ، ولكنهم تركوهم ليقعوا فريسة سهلة فى أيدى القتلة السفاحين ، الذين لم يتورعوا عن بَقْرِ بطون النساء الحبالى ، وتمزيق أجساد الأطفال الصغار ، وتدمير البيوت ، ونهب محتوياتها فى بطولة فريدة ليتهم أظهروا ربعها أو أقل من ذلك أمام هتلر وزبانيته .

ولكن هكذا هم اليهود فى كل زمان ومكان ، يعضون الأيدى التى تمتد إليهم بالمساعدة ، ويستأسدون على الضعفاء والنساء والأطفال ، ويتظاهرون بالشجاعة والجرأة أمام من يفوقونهم جبنا ممن اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة . ولْنَرَ ما فعلوه يوم غزاهم الرسول

صلى الله عليه وسلم فى آخر مستوطناتهم فى المدينة وهو حى بنى قريظة.

غزوة بنى قريظة .

بعد عودة المسلمين من الخندق وهم يحمدون الله ويثنون عليه لإنقاذه لهم من الكارثة المروعة التى كادت تصيبهم بسبب تصرف بنى قريظة الإجرامى ـــ جاء الأمر من السماء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بغزوهم ؛ عقابا لهم على خيانتهم ، فخرج الرسول على الناس وقد ارتدى ثيابَ الحرب ، وحمل سلاحه ، وكلف مناديا ينادى : من كان سامعا مطيعا فلا يُصَلِّيَنَّ العصر إلا فى بنى قريظة .

وهنا تَعِنُّ لنا ملاحظة على ماورد بكتب التاريخ الإسلامى من أوصاف بشأن الغزوات والمعارك التى خاض المسلمون غمارها ، فهم يُظهِرون الأمر كما لو كان هجمة عشوائية شبيهة بالتظاهرات التى يقوم فيها الغوغاء بإلقاء الحجارة على الشرطة ، فى عملية كَرٍّ وفَرٍّ غير منظمة ، بل تغلب عليها الفوضى والارتجال ، وتسودها الفردية التى لاتخضع لأى ضوابط ، ولاتلتزم بأى خطة .

وهو ما نلاحظه فى وصفهم لغزوة بنى قريظة التى قالوا بشأنها : إن الرسول صلى الله عليه وسلم تلقى الأمر من السماء بواسطة جبريل عليه السلام بعد عودته من غزوة الخندق مباشرة ، بالهجوم على بنى قريظة إلى آخر ماذكرناه فى هذا الشأن . ويقولون : فانطلقوا ، أى المسلمون ، إلى أن بلغوا حى بنى قريظة

فضربوا عليه الحصار ، وبطبيعة الحال فإن الصورة التى ستتبادر إلى أذهاننا هى انطلاق جمع غفير من المسلمين يتراوح مابين سبعمائة وثلاثة آلاف مقاتل ، وهم الذين قيل إنهم كانوا يواجهون الأحزاب عند الخندق – إلى حيث يقيم بنو قريظة ، ولا ندرى كيف كان سيرهم ، أو ما سموه انطلاقهم ؟ أكَانَ مشيا عاديا متهاديا ، أم كان هرولة ؟ أم كان جريا ؟ دون أن يحسبوا حسابا لجيش بنى قريظة المكون من ثمانمائة مقاتل أشداء ، أخذوا الأهبة – ولاشك – بعد انسحاب الأحزاب وتوقعهم أن يتحول المسلمون إليهم لينزلوا بهم العقاب الرادع ـــ أن يشن عليهم هجوما مباغتا قبل وصولهم إلى حصون بنى قريظة ، أو أن يكلف بعضا منهم مناوشة المسلمين فى سيرهم أو جريهم والانقضاض على أطرافهم !! فى حين أنهم يسيرون بدون نظام أو ترتيب .

ولست أخفى ماشعرت به دائما ، وأنا اقرأ ماورد فى الكتب العربية بشأن الغزوات من دهشة شديدة للسهولة غير العادية التى اتسم بها إحراز المسلمون للنصر فى معارك تغلب عليها السذاجة والارتجال ، ويغيب عنها التنظيم وتفتقر إلى الإعداد المسبق والتخطيط وكأنها مشاجرة فى حارة ، أو خناقة فى مباراة من مباريات كرة القدم . هذا فى الوقت الذى يولى فيه هذا المؤرخ أو ذاك أمورا أخرى قليلة القيمة أو عديمة الأهمية اهتماما شديدا .

كذلك فقد نسى المؤرخون ، فى حديثهم عن انطلاق المسلمين إلى بنى قريظة ، المدينة ومن بها ، حيث يقيم عدد كبير من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ممن لايؤمن جانبهم ، وهم الذين ذمهم الله

تعالى فى سورة الأحزاب لما بدر منهم فى غزوة الخندق التى لم يكن غبارها قد هدأ بعد ، ولاقالوا لنا ماذا فعل الرسول عندما مضى لغزو بنى قريظة؟ وهل صحبوه أو رفضهم واستبعدهم؟ وهل حسب حسابا لما يمكن أن يفعله ضعاف النفوس والمنافقون أثناء غيابه ؟ بل هل فكر أصلا فى المدة التى سيغيبها عن المدينة فى هذه الغزوة ؟ وسوف نرى كيف أن كثيرين من الأوس – فضلا عن أتباع ابن سلول – كانوا يعطفون على بنى قريظة ، ولايرغبون فى توقيع العقاب العادل عليهم ، فهل كان الرسول مدركا لذلك ؟ وماذا فعل وكيف تصرف قبل أن يترك المدينة إلى حصون بنى النضير؟

هذا ماسكت عنه المؤرخون واكتفوا بالإفاضة فى الحديث عن أمور ثانوية لاتقارن بما ذكرناه .

والواقع أن التاريخ الإسلامى بحاجة إلى أن تعاد كتابته ، وفقا للأصول العلمية الحديثة ، بحيث نتجنب الحشو والمبالغة فى الاهتمام بالموضوعات الثانوية والبعد عنّ الإفاضة فيما لايعد من التا ريخ مثل جواز أداء البعض لصلاة العصر قبل بلوغ بنى قريظة ، فهذا من الأمور التى لاتدخل فى مفهوم التاريخ ، وبالتالى تستبعد منه وتوضع فى مكانها من العلوم الأخرى ، ومثلها كثير تَمَّ حَشْرُه فى كتب التاريخ حتى تضخمت بلا داع ، فى حين أُهْمِلَتْ أمورٌ على جانب كبير من الأهمية مثل الغزوات والمعارك ، على الرغم من أن ماجرى فيها يُعَدُّ من الدروس الهامة التى يجب على المسلم أن يعيها جيدا ، هذا فضلا عن أن إبرازها فى صورة صحيحة ودقيقة يجعل المسلم لايستهين

بما واجهه السلف العظام من صعوبات وماتحملوه من الام ومعاناة من أجل أن يحافظوا على الدعوة سليمة قوية فاعلة .

وقد يقول البعض ممن لاتهمهم مثل هذه الأمور ولا يكفون عن ترديد العبارات التى تحمل معنى التواكل وعدم بذل الجهد والعناية اعتمادا على الله كما يقولون ، قد يقول هذا البعض : إن المسلمين اندفعوا فى غمرة الحماس إلى تلبية دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالانطلاق إلى بنى قريظة لإيمانهم بأن هذا هو ما أراده الله ، وبالتالى فإنه سبحانه وتعالى سيحميهم من أى أضرار قد تصيبهم لأىِّ سبب كان ، كأن يكون اليهود قد نصبوا لهم كمينا أو كمائن هنا أو هناك أو قيامهم بشن هجوم مفاجىء على جموع المسلمين قبل أن يصلوا إلى حيهم .

ولكن أصحاب هذا القول يفوتهم أمر على جانب كبير من الأهمية ، وهو أن الله تعالى الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، أمره وأمر المسلمين أن يأخذوا بالأسباب ، وألا يتواكلوا فقال لهم : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (٧) .

ولقد رأينا كيف أنهم لما أهملوا فى أُحد ، وتخلت كتيبة الرماة عن

---

(٧) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

موقعها طمعا فى الأسلاب ، مُخالِفةً بذلك الأمر الذى أصدره الرسول إليها بعدم ترك موقعها مهما كانت الأسباب ، حتى وإن رأتهم يهزمون – حلت الهزيمة بالمسلمين ، وأى هزيمة ؟ وما كان الله لينصرهم وقد أهملوا واستخفوا وخالفوا . وما ذلك إلا لأن الله يريد للمسلمين أن يكونوا أقوياء ، أذكياء ، يتميزون بالحصافة وبُعْدِ النظر ، وبانوعى والفطنة وحسن التصرف ، والمهارة لا أن يتخذوا من الإسلام مطية لبلوغ أهدافهم أو حِصْناً يَرُدُّ عنهم شر أعدائهم دون أن يبذلوا جهدا أو يتحملوا عناء ، أو يُعِدُّوا أنفسهم لمواجهة أعدائهم مفضلين الترف والحياة اللينة على الكد والعرق والتضحية من أجل حياة كريمة آمنة حرة ، يملكون فيها زمام أمورهم ، ولا يخافون من شرذمة حقيرة كاليهود أن ينقضوا عليهم ، ولا يخضعون لمن يناصبون دينهم العداء ويُكِنُّون لرسولهم الكراهية والبغضاء .

ومما وجدناه متناثرا فى بعض الكتب تبين لنا أن الأمر لم يكن كما يصوره المؤرخون هجمة عشوائية ، أو مظاهرة فوضوية تنتهى بإحراز المسلمين للنصر على أعدائهم ، وإنما تنظيم متقن وتخطيط محكم وإعداد مسبق يأخذ فيه الرسول بعين الاعتبار كافة الاحتمالات ، ولا يترك شيئا للصدفة . فقد كان له عيونه ، وهم رجال أمناء محل ثقة ينقلون إليه مايريد أن يعرفه عن أعدائه .. وكان منهم المقيمون وسط الأعداء بصفة دائمة والذين يقومون بمهمة واحدة ، كما كان لديه فريق للاستطلاع مُهِمَّتهُ الاقتراب ، وإن أمكن التسلل إلى صفوف الأعداء لمعرفة عددهم وعدتهم وما اتخذوه من تدابير .

كذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يوزع المهام على أصحابه ، ولايترك الأمر فوضى : فهناك المسئول عن السلاح ، والمسئول عن الخيل ، والمسئول عن الإمدادات . كما كان له حرسه . ولم يكن الجيش – كما يصوره المؤرخون – مجموعة من الناس تنطلق كيفما كان ، وإنماكان يسوده النظام والانضباط ويأخذ بالتخصص : فهناك المشاة والرماة والفرسان ، ولكل دوره المحدد . والجيش نفسه يتكون من ميمنة ، وميسرة ، ومقدمة ، وساقة ، فضلا عن القلب ، وهى خمسة أقسام ؛ لذلك سمى خميسا . وكانت هناك فِرَق للاقتحام ، وأخرى للهجوم الرئيسى ، وثالثة للتحرك فى أعقاب المهاجمين مهمتها تطهير الميدان من فلول الأعداء . هذا بالإضافة إلى حامل الراية والأمير ، ومن يخلف الأمير إذا هلك هذا ، وغير هذا كثير مما لم يحظ بعناية المؤرخين .

وعلى هذه الصورة وبهذا الترتيب المحكم جرى ضرب الحصار على حى بنى قريظة الحصين ، فأحاط المسلمون بحصونهم لايسمحون لأحد بالدخول أو بالخروج . والمثير للدهشة ذلك الإصرار من جانب المؤرخين على القول إن المسلمين ضربوا الحصار على حصن بنى قريظة مما يجعل القارىء يفهم أنه لم يكن هناك غير حصن واحد ركّز عليه المسلمون كلّ جهدهم حتى نجحوا فى الاستيلاء عليه أو أرغموا من كانوا به على الاستسلام .. وهذا خطأ بلاشك ؛ إذ أن هناك فرقاً كبيرا بين أن يوجه الهجوم ويضرب الحصار على حصن واحد أو على عدد كبير من الحصون .

وهو الفرق الذى ينعكس على الخطة الموضوعة للهجوم وتوزيع المهاجمين وتشكيل القوة المهاجمة واتخاذ الاحتياطات اللازمة إزاء مايمكن أن يحدث من تعاون أو اتصال بين الحصون بعضها وبعض أو بينها وبين أعوان اليهود من المنافقين ، ثم هناك الجهد المطلوب بذله ، والوقت الذى يستغرقه الحصار ، إلى غير ذلك من الأمور الهامة . ويقول ابن كثير : كانت بنو قريظة – وهو طائفة من اليهود – لهم حصن شرقى المدينة – وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ! فأى حصن هذا الذى يتسع لهذا العدد من المقاتلين ؟ وهو قول يخالف ماجاء فى القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾ (٨) يعنى حصونهم ، ومنه سميت صياصى البقر ، وهى قرونها ؛ لأنها أعلى شىء فيها ، فهى إذن حصون عالية قوية جيدة التسليح ويقول توماس أرنولد : إن المدينة كانت فى زمن النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) تضم عددا عظيما من اليهود يقيمون فى قلاع حصينة .

وإذا كان عدد المقاتلين اليهود ثمانمائة مقاتل ، فمعنى ذلك أن هذه القبيلة كانت مكونة من حوالى ثلاثة آلاف مابين رجال ونساء وأطفال لا يتصور أن يقيموا جميعا فى حصن واحد، خاصة أن الحصون فى ذلك الوقت ، وفى الحجاز على سبيل التحديد – لم تكن كبيرة بحيث تتسع لإقامة عدد كبير من الناس لمدة طويلة يمارسون

---

(٨) الآية ٢٦ من سورة الأحزاب

حياتهم العادية من نوم وطعام وشراب وقضاء حاجة وغير ذلك ، كما حدث حين حاصر المسلمون يهود بنى قريظة لمدة خمسة وعشرين يوما ، وهو ماتذكره الروايات المختلفة .

لذلك نرجح أن يكون عدد حصونهم عشرين حصنا ، وهذا التقدير لم يقم على أساس مايمكن أن يتسع له الحصن من أفراد ؛ فهذه الحصون لم تكن مبانى عامة أُنشِئتْ بغرض حماية كل السكان من اليهود ، وإنما كانت مساكن لأصحابها من ذوى الجاه والثراء تأخذ شكل الحصن لكى يحتموا بها ومعهم أموالهم وثرواتهم ، أما بقية اليهود ممن ليسوا على ثراء أولا يملكون مايخشون عليه فقد كانوا يقيمون فى بيوت بنيت من مواد محلية كاللبن وسعف النخل وسوقه ، ومن مواد أخرى كالخشب يستخدمونه للنوافذ والأبواب ، وهو من النوع الصلب الثقيل . وغالبا ماكانت الحصون تقام بطريقة تمكن المقيمين فيها من توفير الحماية لسكان البيوت الذين كانوا يتركون بيوتهم ليختبئوا فى هذه الحصون إلى أن يزول الخطر .

ولايذكر لنا المؤرخون المسلمون شيئا مما حدث بعد أن ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم الحصار على آخر مستوطنة يهودية بالمدينة ، ولا ما جرى من الثمانمائة مقاتل يهودى ، وإنما اكتفوا بالقول إن الحصار استمر خمسة وعشرين يوما فى قول ، وشهراً كاملاً فى قول ، وكأن الفرق بين القولين – وهو خمسة أيام من المعاناة والقلق – ليس بذى شأن ، وكأن الفريقين ظلا ساكنين ينظر أحدهما إلى الآخر : المسلمون حيث يقفون حول الحصون ، واليهود من فوق

الأسوار ومن خلال نوافذ حصونهم ، إلى أن اعتراهم الملل ، ونال منهم الخوف والفزع ، فطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يبعث إليهم بواحد من المسلمين هو أبو لبابة بن عبد المنذر الأنصارى ، من الأوس ، لكى يستشيروه ، فأرسله ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وبكى النساء والصبيان ، فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح .

وليس من شك فى أن الأمركان على خلاف ذلك ، فقد حاول اليهود أن يردوا المسلمين عن حيهم ويفكوا حصارهم لحصونهم ، ولاشك أيضا فى أن يهود بنى النضير حاولوا أن يقدموا لهم المساعدة ، فقد كان زعيمهم حُيىُّ بن أخطب محاصرا هو الآخر منذ انسحاب الأحزاب . بل ولا نستبعد أن يكون بعض المنافقين والسذج ، أو مَن كانوا يحسنون الظن باليهود من الأوس حلفاء بنى قريظة ، ومن الخزرج أنصار عبد الله بن أُبَىّ قد رَقُّوا لحالهم وحاولوا أن يفعلوا شيئا لأجلهم . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل أمام إصرار المسلمين على هزيمة بنى قريظة وإنزال العقاب الرادع بهم جزاء خيانتهم وغدرهم .

ومما يدل على وجود ميل لدى بعض الأوس نحو بنى قريظة ، ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من ترك الحكم على بنى قريظة لزعيم الأوس سعد بن معاذ ؛ فقد أحاط الأوس بالرسول يقولون له : افعل فى موالينا مثلما فعلت فى موالى الخزرج ، يعنى بنى قينقاع وبنى النضير ، فقال لهم : ألا ترضون أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ؟

قالوا : بلى . وهنا يثور تساؤل بشأن السبب أو الاسباب التى جعلت الأوس يطلبون من الرسول أن يعامل بنى قريظة كما عامل بنى قينقاع ، على الرغم من الفارق الكبير بين مافعله هؤلاء وما فعله أولئك : فبنو قينقاع دبروا مؤامرة لإثارة الفتنة بين العرب ، وذلك عندما كشف أحدهم عن عورة المرأة المسلمة ، فى حين أن بنى قريظة فعلوا ماهو أخطر من ذلك ، حيث نقضوا العهد مع الرسول ، وتحالفوا مع المشركين فى أخطر غزوة وهى غزوة الأحزاب ، فأصبحوا مصدر تهديد حقيقى وهم فى مواقعهم فوق المسلمين ، فلو أن الحرب وقعت واشتركوا فيها فعلا لتمكنوا هم والمشركون من سحق المسلمين وقتل الرسول صلى الله عليه وسلم . فهل كان إلحاح الأوس فى المطالبة بمعاملة بنى قريظة مثل معاملة بنى قينقاع وبنى النضير سببه ألا يكون وضعهم عند الرسول أدنى من وضع الخزرج ، وهو أمر يعتبرونه ماساً بكرامتهم وشرفهم ، بغض النظر عن التفاوت فى الذنب ، خاصة أنه قد جاء فى تفسير القرطبى أنهم قالوا : يارسول الله ، وقد علمت أنهم حلفاؤنا ، وقد أسعفت عبد الله بن أبى بن سلول فى بنى النضير حلفاء الخزرج ، فلا يكن حظنا أوكس وأنقص عندك من حظ غيرنا ، فهم موالينا – أو أن مطالبتهم بأن ينال بنو قريظة نفس المعاملة التى نالها بنو قينقاع يرجع إلى العاطفة والوفاء ، حيث سبق لبنى قريظة أن أوهموهم بأنهم يناصرونهم ضد الخزرج ، إيمانا منهم بقضيتهم ، وليس بدافع الرغبة فى تأجيج الخلافات بينهم .

وهكذا نلاحظ أن البعض ممن أسلموا كانوا لايزالون يولون

الأمور ذات الطبيعة العصبية ، اهتماما يفوق اهتمامهم بالمصالح العليا لجماعة المسلمين . ومع ذلك فإن الرسول الكريم كان يعاملهم برفق ، ولايحاول أن يصدم مشاعرهم ، أو أنه كان يجد أن مستواهم الفكرى البسيط لا يحتمل أن يدخل معهم فى حوار ليبين لهم الفرق بين مايريدونه استنادا إلى النعرة القبلية ، ومافيه مصلحة الإسلام والمسلمين . وهكذا كانت معارك الرسول ليست مع أعداء الإسلام من مشركين ويهود فقط ، بل ومع بعض المسلمين الذين لم يرتقوا بفكرهم إلى مستوى الأحداث .

ولم يكتف الأوس بأن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سعد ابن معاذ بالحكم على اليهود ، بل ترقبوا وصول سعد من المدينة إلى حيث يقع حى بنى قريظة على أميال منها ، ولاذوا به يقولون له : ياسعد ، إنهم مواليك ، فأَحْسِنْ فيهم ، ويرقّقونه عليهم ويعطفونه .

أما اليهود فقد قالوا لسعد يومئذ : يا أبا عمرو ، حلفاؤك ومواليك ، وأهل النكاية [٩] ومن قد علمت .

ولكن كل هذه التوسلات لم تجد ، فإن سعدا نحَّى مشاعره جانبا ، ولم يفعل كما فعل عامة الأوس ، فنظر فقط إلى مافعلوه وما كان سيترتب عليه من نتائج وآثار بالغة الخطورة ، خاصة أنه هو

---

(٩) يقال : نكيت فى العدو نكاية : إذا أكثرت فيهم الجراح والقتل . يصفهم بالبأس والشدة .

نفسه قد حذرهم من مغبة أعمالهم ، فشتموه وأساءوا إلى الرسول ، فكان أن حكم أن تقتل المقاتلة ، وتسبى الذرية والنساء ، وتقسم الأموال . فضربت أعناقهم وكانوا ستمائة أو سبعمائة ، وقيل مابين سبعمائة وثمانمائة ، وفيهم حُيَىُّ بن أخطب سيد بنى النضير ، وكعب ابن أسد سيد بنى قريظة .

ولقد كشف حُيَىُّ بن أخطب فى الكلمة التى قالها قبل أن يقتل ما يثبت أن العفو عنه وعن بقية اليهود ماكان ليؤدى إلى عدولهم عن موقفهم من الإسلام ومن المسلمين ، وإنما كانوا سينسحبون من المدينة ليعيدوا تنظيم صفوفهم ويدبروا لغزوة أشد خطورة وأكثر إحكاما من غزوة الخندق التى فشلت ، فقد قال يوجه كلامه للرسول صلى الله عليه وسلم : والله ما لمت نفسى فى عداوتك .

وهكذا حاقت الهزيمة بثالث كبريات القبائل اليهودية فى المدينة بنى النضير ونزل فيهم قول الله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾ (١٠).

---

(١٠) الآيتان ٢٦ و٢٧ من سورة الأحزاب .

وقال بعض المفسرين إن « أرضا لم تطئوها » هى « خيبر » التى كانت أكبر مستوطنة يهودية فى الحجاز لايقيم بها غير اليهود . وعلى الرغم من أن غزوها وقهر من كانوا بها يلى فى الترتيب، فإننا سنؤجل الحديث عنها إلى الفصل الثالث والأخير ؛ نظرا لارتباط فتحها بموضوع هام جدا هو زواج الرسول صلى الله عليه وسلم بالسيدة صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب ، وماقيل فيه ، أى فى هذا الزواج من آراء بعيدة كل البعد عن الصحة ، وسنستمر مع بقية المستوطنات اليهودية الأخرى التى أخضعها المسلمون وقضوا على سيادة اليهود عليها .

لاشك أن أخبار الغزوات التى غزاها الرسول صلى الله عليه وسلم لليهود ، بالطريقة التى وردت بها فى كتب السيرة والتاريخ الإسلامى – تطمس الرابطة التى تربط هذه الغزوات بعضها ببعض ، كما أنها تطمس الباعث الحقيقى عليها ، والهدف الحقيقى الذى استهدفته ، فتظهرها كما لو كانت أعمالا عسكرية متفرقة جرت بطريقة عشوائية ، أو كيفما اتفق . وهذا غير صحيح على الإطلاق .

ذلك لأن المعركة مع اليهود لم تكن تقل أهمية عن المعركة مع قريش والمشركين عموما ، بل ربما تفوقها لأسباب عديدة : منها : أن المشركين كانوا عربا ، أى أصحاب البلاد ، على خلاف اليهود الذين رأينا كيف غزوا الجزيرة العربية واستوطنوا الكثير من مناطقها الهامة وأقاموا فيها دويلات تملك الثروة والقوة والسلطان .

كذلك، فإن ترك العرب الشركَ واعتناقهم الإسلام، إذا حدث ، مع بقاء اليهودُ الدخلاء ، وهم أصحاب دين يقوم على التوحيد أيضا ، ولو فى صورة مشوهة بعد أن عبث اليهود بالتوراة – كان سيؤدى إلى صراع بين الدينين لايعلم مداه إلا الله ، ومن يقرأ تاريخ الدعوة الإسلامية فسيرى كيف أن اليهود لم يكفوا عن مناوأة الرسول صلى الله عليه وسلم وتكذيبه وإشاعة الشكوك والريب حول دعوته . ليس ذلك وحسب ، بل إن كثيرين منهم ممن اعتنقوا الإسلام كانوا لايتورعون عن التشكيك فى نبوة الرسول ، وبالذات أثناء غزوة تبوك .

ومن الأسباب أيضا ، أن بقاء اليهود بين ظَهْرَانَى العرب كان من شأنه أن يتيح لهم الفرصة لممارسة سياستهم الهادفة إلى تأليب العرب بعضهم على بعض ببعث الخلافات القديمة من مرقدها، وخلق الصراعات بين القبائل العربية، وهو ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا أشد الحرص على منعه بكل السبل ، حتى لاتتبدد قوى المسلمين ويستمروا كما كانوا – ضعافا مقهورين يستذلهم اليهود والفرس والروم .

وحيث إن اليهود قد رفضوا منذ البداية التصديق بنبوة الرسول وناصبوا الإسلام العداء ، وخالفوا عقد الموادعة ، فإن طردهم من الجزيرة العربية أصبح أمرا لا مَفَرَّ منه ؛ منعا لشرورهم وتَلافياً لخطرهم .

ولكن كيف يتم ذلك ؟ هذا هو ماكان الرسول صلى الله عليه

وسلم يفكر فيه ، مع أخذه بعين الاعتبار قوتهم التى كان يقال عنها الكثير ، ولكنها ليست معروفة على وجه التحديد ، وهو ماكانوا يحرصون عليه أشد الحرص ، كما هو دأبهم الآن ؛ لما لذلك من دور فى إخافة أعدائهم وجَعْلِهم يترددون فى الهجوم عليهم . وكذلك خطتهم فى إقامة المستوطنات ، التى روعى فيها أن يكون بعضها رديفا لبعض بحيث يكون من السهل تقديم العون والدعم والمساعدة من المستوطنات المتأخرة إلى المستوطنات المتقدمة ، واستخدام الأولى كخط رجعة فى حالة ما إذا نزلت الهزيمة بالثانية ، فيلجأ إليها المنسحبون بأموالهم وأسلحتهم وعتادهم ، وهو مافعله بنو قينقاع وبنو النضير ، فقد قصد الأولون أذرعات ، فى حين قصد الأخيرون خيبر ، التى تضاعفت قوتها وزاد خطرها .

ولذلك فإن بعض المستشرقين يعتبرون فتح خيبر أول فتح فِعْلِىٍّ يقوم به المسلمون ، وهذا صحيح من جميع الوجوه ، فلقد كانت خيبر مستوطنة يهودية خالصة لايقيم بها غير اليهود ، تتميز بالتسليح الجيد والحصون القوية المنيعة ، وبوجود المقاتلين الأشداء المشهورين بين العرب واليهود على السواء .

وإذا كان اليهود قد فقدوا مستوطناتهم فى المدينة ، فإنهم عللوا ذلك بوجودها فى متناول أيدى المسلمين ، وذلك بخلاف المستوطنات الأخرى ، وعلى رأسها خيبر ، التى كانت بعيدة عنهم بمسافة طويلة ، وهذا ماجعل اليهود يمنون أنفسهم بالنصر على المسلمين إذا مافكروا فى الهجوم عليها ؛ نظرا لبعد الشقة ومايترتب

عليها من معاناة ، فضلا عما يتوفر لتلك المستوطنة من مزايا لاشك أنها ستتيح لها التفوق على المسلمين .

وكانت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن قضى على المستوطنات الثلاث فى المدينة ، أن يقضى على أكبر وأخطر المستوطنات اليهودية التى تنتشر بين المدينة والحدود الشمالية للحجاز ، وذلك لأسباب عديدة ، منها : أنه لايصح أن يتجاوز خيبر ويوجه هجومه إلى مايليها شمالا ؛ لأنه بذلك سوف يجعل ظهره مكشوفا ليهود خيبر ويعرض جيشه لهجومهم ، فيقع بين فكى الكماشة وتلحق به الهزيمة . هذا فضلا عما سيؤدى إليه ذلك من انقطاع اتصاله بقاعدته فى المدينة ، مع احتمال أن يؤلب اليهود القبائل العربية عليه ، فتهاجم المدينة وليس فيها إلا عدد ضئيل من المسلمين لايمكنهم الدفاع عنها .

وهكذا كان لسقوط خيبر دوى هائل صك آذان اليهود على طول المنطقة الممتدة إلى الحدود الشمالية مع الإمبراطورية البيزنطية ، واعتراهم خوف شديد ؛ ولذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكد ينتهى من خيبر حتى توجه بجيشه إلى وادى القرى القريب من خيبر ، فضرب عليه الحصار بضع ليالٍ ، أخذ اليهود أثناءها يقذفون المسلمين بسهامهم من وراء حصونهم ، فأصابوا خادما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقتلوه ، ولكنهم مالبثوا أن أدركوا عقم مقاومتهم ، وأنهم لن يفلحوا حيث فشل يهود خيبر فعرضوا الصلح على الرسول صلى الله عليه وسلم ، على أن يؤدوا الجزية ويخضعوا

للمسلمين ويعملوا لهم كمزارعين فى الأرض مقابل نصف المحصول .

واستمر تأثير الهزيمة التى لحقت بخيبر ، فى اليهود القريبين منها ، فبادر يهود تيماء الذين كانوا يُكِنُّون عِدَاءً شديدا للرسول إلى إظهار استعدادهم للخضوع للمسلمين مختارين ، وشجعهم على ذلك مالقيه إخوانهم فى وادى القرى من حسن المعاملة ، وظلوا يعملون فى أرضهم نظير أداء الجزية .

كذلك فعل يهود فَدَك الذين أصابهم رعب شديد لمَّا سمعوا بهزيمة وسقوط خيبر ، فبعثوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يصالحونه على النصف من فدك فقبل ذلك منهم وتم إبرام الصلح .

وهكذا أدى سقوط المستوطنة اليهودية القوية فى خيبر إلى سقوط ثلاث مستوطنات يهودية أخرى هى : وادى القرى ، وتيماء وفدك ، ولكن ابن سعد فى طبقاته ذكر مستوطنة يهودية أخرى هى « الجرباء » قال إنها استسلمت هى الأخرى .

ولكن بقيت ست مستوطنات أخرى فى أقصى الشمال يجب القضاء عليها ، حتى يتخلص الحجاز كله من تسلط اليهود واستغلالهم ، ويأمن غدرهم وخيانتهم . صحيح أن المدينة كانت قد تطهرت منهم ، ولكن منطقة الحدود الشمالية المتاخمة لدولة الروم كانت ماتزال تحت سيطرتهم هى والطرق التجارية الهامة التى تصل الجزيرة العربية بالشام وفلسطين ومصر .

غزوة تبوك

فى السنة التاسعة من الهجرة بدأ الإعداد لغزو تبوك وماحولها .. وفى هذا الصدد يهمنا أن نناقش ماورد بكتب التاريخ والسيرة . فقد ذكر ابن هشام أن الرسول قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوَجْهِ الذى يقصد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بَيَّنَها للناس لِبُعْدِ الشُّقَّة وشدة الزمان وكثرة العدو الذى يقصد له ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم .

ونظرا لأن هذا الذى قاله ابن هشام ليس إلا استنتاجا لايقوم على صحته دليل ، لا من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ولا من الواقع ، حيث إن الرسول صلى الله عليه وسلم سبق أن صرح بغزوه لبنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة دون أن يكنى ، أى يخفى وجهته الحقيقية لأجل أن يباغت أعداءه . ولكن فى الأحوال التى ذكرناها كان الأعداء قريبين والهجوم حال لايحتاج إلى وقت طويل ولا سير لمسافات بعيدة ، وهو ماتختلف فيه غزوة تبوك ؛ لذلك نرجح أن يكون العكس هو الصحيح ، أى أنه لما صرح الرسول بأنه يقصد الروم فإنه كان يقصد غيرها ، وهى تبوك وماهو قريب منها من المستوطنات اليهودية ، وهناك أكثر من دليل يؤيد استنتاجنا هذا منها :

أولا – أنه لم تكن هناك أى فائدة من غزو الرسول صلى الله عليه وسلم للروم ، الذين كان لديهم جيوش جرارة وأعوان كثيرون من

حلفائهم العرب ، والجميع على مستوى عال من الخبرة العسكرية والحربية ، فضلا عن وجودهم قريبا من قواعدهم فى الشام ، بعكس المسلمين الذين كانوا بعيدين جدا عن قاعدتهم فى المدينة .. أما القول بأن الرسول إنما أراد أن ينتقم لشهداء مؤتة الذين قتلوا فى معركة غير متكافئة مع الروم ، حيث كان عدد المسلمين ثلاثة آلاف مقابل مائة ألف أو أكثر من جنود الروم وحلفائهم العرب – فإن الرسول نفسه لم يصرح بشىء يفهم منه أن ذلك هو السبب فى غزوه للروم ، وإنما كان ماصرح به أنه سيغزو الروم .

ثانيا – أن الصراحة الشديدة التى تكلم بها الرسول عن غزوة الروم ، هى ذاتها التى توحى ــ وبسهولة شديدة – بأنه إنما كان يقصد وجهة أخرى غير الروم ؛ لأنه إذا كان قد تعمد أن يخفى وجهته فيما قام به من غزوات ضد قريش أو غيرها ، فمن باب أولى إذا قصد أن يغزو الروم ؛ لأنهم أقوى وأكبر ، وجيوشهم ضخمة وأسحلتهم كثيرة ومتنوعة ، وخبرتهم عظيمة ، فأن يباغتهم بالهجوم دون أن يكون لديهم علم هو الأصح ، ولكنه كان يريد أن يباغت اليهود ، وليس الروم ، ولذلك صرح بالروم ولم يصرح باليهود .

ثالثا : أن الظروف التى كانت الغزوة ستتم فيها كانت تستدعى فعلا إخفاء وجهتها ؛ ذلك لأن تبوك كانت بعيدة عن المدينة بمسافة تسمح لسكانها ولسكان المستوطنات الأخرى بالاستعداد لملاقاة جيش المسلمين ، إذا مابلغهم مقدمهم لحربهم ، وقد كان بين المسلمين من يتعاطفون مع اليهود ، مثل عبدالله بن أُبَيٍّ بن سلول ،

الذى بلغت به الخيانة أن انسحب وعاد إلى المدينة بأتباعه ، تاركا الرسول فى طريقه إلى تبوك بل وكان هناك عملاء يهود ، وإن كانوا قد تظاهروا بالإسلام : منهم سويلم الذى كان يجمع الناس ويثبطهم عن الاشتراك فى الغزو ، وزيد بن اللصيت القينقاعى ، وآخرون ، فلو أن الرسول صلى الله عليه وسلم صرح بأنه يقصد تبوك لبعثوا بالخبر إليها ، فاستعدت لملاقاته بجيش كبير يتكون من رجالها ورجال المستوطنات الأخرى القريبة ، وربما استعانت بآخرين من القبائل العربية المعارضة للرسول صلى الله عليه وسلم .

ولكن ماذا إذا نمى الخبر إلى الروم بأن الرسول إنما يقصدهم فعلا لا اليهود ، وأخذوا أهبتهم لملاقاته فى جيش ضخم يقضى عليه وعلى من معه ؟ بطبيعة الحال فإن مثل هذا الاحتمال لايمكن أن يكون قد غاب عن فطنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إنه كان حاضرا – وبوضوح – وإلا ماصرح بأنه يقصد غزو الروم ، ولكن بما أنه لم يكن ينوى غزوهم فإنه استبعد أن يشتبكوا معه فى حرب داخل حدود الجزيرة العربية حيث الصحراء الشاسعة التى لاخبرة لهم بالحرب فيها ، ثم إن تبوك تقع داخل الجزيرة ، ولا شأن لهم بها بعكس معان ومؤتة اللتين حاربوا فيهما العرب فى العام السابق ، فهما تقعان داخل حدود الإمبراطورية ، وبالتالى لم يكن يجوز ترك العرب يصولون ويجولون فيها ؛ لما فى ذلك من مساس بهيبة الإمبراطور ودولته .

أما أن يقال إن الرسول أراد غزو الروم لما علم بتجمعهم فى

جيوش جرارة على حدود الحجاز ، ثم لما بلغ تبوك توقف بضعة أيام ، ثم عاد أدراجه ، فإنه كلام يعوزه الدليل . فما كان الرسول صلى الله عليه وسلم بالذى يتصرف على هذا الوجه ، أى أن ينتزع الناس من بيوتهم فى الحر الشديد وفى ظروف بالغة القسوة ، حيث لا ماء تقريبا ، ولا مكان يرتاح الناس فيه ، وقد كان معظم الجيش من المشاة وقلة من الفرسان ؛ لكى يقول للروم هأنذا وهو يقف بعيدا عنهم بأميال داخل حدوده ، كلا طبعا ، وإنما كان الغرض هو غزو تبوك ولاشيء غير ذلك ، وما كانت تبوك والمستوطنات الست الأخرى بالتى يستهان بها ، خاصة أنها أصبحت آخر مكان فى أيدى اليهود ووجودهم فيه مسألة حياة أو موت ؛ إذ ليس بعد ذلك إلا العودة إلى الروم الذين كانوا قد فروا منهم ، وكانوا يكرهونهم بشدة قد لاتزيد عن كراهيتهم للمسلمين ، ولكن هؤلاء بالنسبة لهم أرحم بكثير وأشد تسامحا ، وهو ما أخبرهم به إخوانهم الذين لحقوا بهم من المدينة وخيبر وغيرها .

وهكذا ، فإن يهود تبوك والمستوطنات الأخرى اطمأنوا لما بلغهم أن المسلمين يقصدون الروم ، واستبعدوا أن يهاجموهم حتى لاينال ذلك من قوتهم ، ويستنفد بعض طاقاتهم ، فيلتقوا بالروم وهم فى حالة من الإرهاق والضعف ، بل وربما تصوروا أن المسلمين قد يهادنونهم تلافياً لشرهم أو تجنُّباً لخطرهم ، وقد يستعينون بهم للحصول على الإمدادات اللازمة ، خاصة آن خطوط إمداداتهم مع قاعدتهم فى المدينة طويلة بدرجة لا تسعفهم فى الحصول على مايحتاجون إليه فى الوقت المناسب .

ولكن كل توقعاتهم فشلت ، واستولى المسلمون على تبوك ، واضطروهم إلى الاستسلام بعد أن وجدوا أنه لا فائدة ، بل لاسبيل إلى المقاومة ، فأذعنوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ووافقوا على أداء الجزية ، وأن تعود الأرض إلى أصحابها على أن يحصلوا هم على نصف غلتها ، وأقام الرسول صلى الله عليه وسلم فى تبوك عشرة أيام ، فوفدت عليه وفود المستوطنات الأخرى التى أيقنت بالنهاية المحتومة ، وأن لاسبيل إلى الوقوف فى وجه أصحاب الأرض الذين لم يعودوا كما كانوا عندما غزت يهود الحجاز . وهكذا خضعت أذرح ، وقمنا ، وبنى جنبه ، وبنى عريض ، وبنى غاريا ، بل وأيلة التى كانت دويلة نصرانية يقيم بها بعض اليهود ، فقد جاء ملكها المدعو يوحنا بن رؤبة يعلن خضوعه للرسول ويلتزم بدفع الجزية .

وبغزوة تبوك سقط سلطان اليهود نهائيا ، وأصبحت مستوطناتهم ملكا للمسلمين ، وجرى إنشاء المساجد فى طول وعرض المنطقة الممتدة بين تبوك والمدينة يتردد من فوقها صوت المؤذنين خمس مرات كل يوم بنداء الله أكبر ، وبشهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ولكن هل كف اليهود عن عدائهم للمسلمين ، وكبحوا رغبتهم فى الكيد لهم ، بعد كل ماأصابهم ؟ كلا بطبيعة الحال ؛ فإنهم لو فعلوا هذا لما كانوا يهودا ، ففى خيبر قتلوا غيلة رجلا من المسلمين يُدْعَى عبدَ الله بن سهل ، ولما سألهم الرسول عن ذلك بناء على اتهام أولياء القتيل لهم أنكروا ، بل وأقسموا أنهم ماقتلوه ، وعندئذ أدى الرسول صلى الله عليه وسلم الدية من ماله ، مَنعْاً لثأر المسلمين منهم .

ومرة ثانية حاولوا قتل عبدالله بن عمر لما ذهب إلى خيبر يتفقد ماله . ولكنه لم يُقتل وأصيب فى يده فقط . ويبدو أنهم قد نظموا مايشبه حركة إرهابية سرية تهدف إلى قتل المسلمين ، أو تخويفهم لكى يتركوا لهم خيبر .

لذلك ، فإنه لما ثار الجدل حول تصرفاتهم التى تخالف التزاماتهم بموجب العهد الذى سبق أن منحه لهم الرسول ، نمى إلى علم الخليفة عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى مرضه الذى قبضه الله فيه : لايجتمعن بجزيرة العرب دينان ، فتحرى عمر ذلك وفحصه حتى تَثَبَّتَ منه ، فأرسل إلى يهود ، فقال : إن الله عز وجل قد أذن فى إجلائكم، قد بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لايجتمعن بجزيرة العرب دينان ، فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتنى به ، أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء .

وهكذا أجلاهم عن الجزيرة العربية بعد أن تأكد بصورة نهائية أنهم لن يكفوا عن الكيد للمسلمين وإيذائهم ، فآلت مستوطناتهم إلى أصحابها الحقيقيين ، كما ستئول مستوطناتهم فى فلسطين إلى أصحابها بإذن الله .